

أصول الفلسفة الإسلامية واستمداها

الدرس
2

أهداف الدرس

1. أن أتعرف أصول الفلسفة الإسلامية ومصادرها؛
2. أن أتبين استمداداتها وفرادتها؛
3. أن أتمثل أصولها في ترشيد فهمي، وتوجيه فكري .

تمهيد

للفلسفة الإسلامية أصولها الثابتة، ومرجعيتها الأصلية جذرا ومنبتا وسياقا وقضايا، ومنابعها الصافية الحضارية المتجددة العطاء، المتمثلة أساسا في القرآن الكريم: الوحي النازل من السماء، والسنة النبوية الطاهرة الشارحة والمبينة والمخصصة له، وفي العقل الاجتهادي الناظر في فقه الوحي والتراث.

فما أصول الفلسفة الإسلامية؟ وما مصادر استمداداتها؟ وما مرجعيتها المعتمدة في التأسيس والبناء؟

نص الانطلاق

1. قال الإمام الغزالي: «وأنى يُستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قولُ سيد البشر ﷺ، وبرهانُ العقل هو الذي عرف به صدقُه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أن العقل قاصر، وأن مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات، وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات».

[الاقتصاد في الاعتقاد، ص10]



2. يقول ابن رشد: «... ولهذا المعنى اضطررنا نحن في هذا الكتاب -مناهج الأدلة- أن نعرف أصول الشريعة، فإن أصولها إذا تؤملت وجدت أشد مطابقة للحكمة، مما أول فيها، وكذلك الرأي الذي ظن في الحكمة أنه مخالف للشريعة يعرف أن السبب في ذلك أنه لم يحط علما بالحكمة ولا بالشريعة». [مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص184]

الفهم

استخلاص المضامين:

- **العقل:** أساس الإدراك والمعرفة والاستنباط.
- **الرأي:** التفكير في مبادئ الأمور والنظر في عواقبها.
- **أصول الشريعة:** مصادر وأدلة الأحكام الشرعية.

التحليل

نتناول هذا الدرس من خلال المسألتين الآتيتين:

المسألة الأولى: أصول الفلسفة الإسلامية ومصادرها

الفلسفة الإسلامية أو منهج التفكير عند المسلمين ليست مزيجا أو تعريبا خالصا لفلسفة اليونان، أو هي فلسفة يونانية كتبت بأحرف عربية كما يرى بعض الدراسين، بل هي قائمة بذاتها مستقلة بكيونيتها وشخصيتها في أصولها واستمدادها وقضاياها ولغتها ودواعي نشأتها؛ «فالفلسفة الإسلامية هي التعبير النهائي المتجددة للأمة الإسلامية، والانقذاح المنصهر السيال لتطور هذه الأمة، وتجدد مسارها، إن هذه الفلسفة جوهر حياتهم، ومرآة تطورهم؛ لهذا كان لزاما علينا أن نقول: إن الفلسفة الإسلامية لها خصوصيتها المتميزة، ونبعها الحضاري المستقل، ونميرها الثقافي الفياض، كلاما وفقها وتصوفا، فهي تختلف عن الروح الفلسفي المنبعث من أمة مختلفة الخصائص، ومختلفة الآفاق، ومتعددة المشارب». [نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، علي سامي النشار، ص22 بتصرف]

فالتفكير الفلسفي الإسلامي ينطلق أساسا من الوحي: القرآن الكريم الذي يعتبر أصل الأصول في الفلسفة الإسلامية، والمصدر الرئيس الذي أقيم عليه صرح هذا الدين في بناء الإنسان، وصُنِعَ

الحضارة وإقامة العمران البشري تسخيروا واستخلافا وتمكينا وعمارة، كما أن السنة النبوية الطاهرة مصدر رئيسٌ أيضا للفلسفة الإسلامية، فهما وتطبيقا وتمثلا وامتنالا؛ حماية لها من عوامل التحريف والتزييف، قال عليه الصلاة والسلام: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [سنن أبي داود، باب لزوم السنة]، يقول الامام الغزالي: «فأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع»، فالفلسفة الإسلامية قائمة على هذه الازدواجية منضبطة لها، منتجة للمعرفة وفقها، وقد كان الفكر الأصولي خير معبر عن هذا المنهج، فهو كما قال الإمام الغزالي: «يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرف بمحض العقول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد». [المستصفى 4/1]

إن هذه الازدواجية في أصول الفلسفة الإسلامية- النقل المسدّد والعقل المؤيّد- تفتح آفاقا واسعة للفكر والمعرفة والبيان، تفاديا لكل تقليد إمعي معيب، يعطل السير الحضاري الحثيث، ويعوق مسيرة المعرفة الناهضة؛ يقول الغزالي: «وَأَنى يُسْتَتَب الرِّشَاد لمن يَقْنَع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قولُ سيد البشر ﷺ، وبرهانُ العقل هو الذي عرف به صدقُه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أن العقل قاصر، وأن مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات، وتعرثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات». [الاقتصاد في الاعتقاد، ص 10]

فالعقل المسترشد بالوحي حينما يتأمل بعض حقائق وأسرار الوجود يدرك أنه أمام تناسق محكم دقيق، وجمال معجز بديع، ينتهي بالاستسلام أمام عظمة الصانع والإقرار ببربوبيته، وتلك غاية من غايات التفكير الفلسفي، قال تعالى: ﴿إِذْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَتَوَكَّلُونَ ۚ وَتَتَذَكَّرُونَ ۚ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ لَنَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ سُبْحَانَكَ ۚ﴾ [آل عمران 190-191] قال الرازي: «وقوله «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» إشارة الى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فاذا كان اللسان مستغرقا في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر كان هذا العبد مستغرقا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق الى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور الى جناب الملك الغفور». [مفاتيح الغيب 110/9]

وقد اشترط القرآن الكريم سلامة العقل لسلامة الدين ، وجعل النشاط العقلي أرقى مراتب العبادة ، وأسمى درجات التقدير والاعتبار في عالم الإنسان والكون في النظام المعرفي ، وهذا النشاط يتكامل فيه الوحي النازل من السماء في التأسيس والبناء والترشيد ، والعقل الراشد القاصد في الفهم والتفكير ، وجودة التمثيل لجوهر الحقيقة ، وبدر اليقين؛ إذ بموجب صحة النقل وسلامة العقل تتجدد الفهوم ، وتتطور العلوم ، وتسمو القيم والأفكار ، يقول الإمام الغزالي: «العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، والرؤية من العين». [إحياء علوم الدين 83/1]

وبناء على ما سبق فقد «تلاشى القول بأن الفلسفة العربية أو الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه ، أو كاد أن يتلاشى ، وأصبح في حكم المسلم به أن للفلسفة الإسلامية كياناً خاصاً يميزها عن مذهب أرسطو ومذاهب مفسريه». [تمهيد لتاريخ الفلسفة ، ص 26]

المسألة الثانية: استمداداتها ومرجعيتها

الفلسفة الإسلامية تستمد قضاياها ومنهجها وبياناتها من أصول الإسلام ومصادره وقضاياها ، فهي تهتدي بهديه ، وتسترشد بتوجيهاته ، وتجعل أسمى غاياتها ، معرفة الصانع جل وعلا؛ ذلك أن القرآن الكريم هو مصدرها الأساس في البناء والتأسيس ، والسنة النبوية الشريفة هي مصدرها الثاني في البيان والتوجيه ، والاجتهاد المنضبط ثالثها في الفهم والتبصر والنظر والاستدلال ، فقد نبئت الفلسفة الإسلامية في حضان علم الكلام ، وأصول الفقه ، والتصوف السني؛ فالجدل الكلامي بين المذاهب الكلامية: أشاعرة ومعتزلة وغيرهم في قضايا علم الكلام - سبق في السنة الأولى الوقوف على نماذج منها - مهّد للفلسفة الإسلامية ، وكان له أثر كبير في نشاط الفعل الفلسفي والحجاج العقلي مسترشداً بالنص الشرعي للدفاع عن قضايا العقيدة ورد الشبه حولها ، وكذا الأمر بالنسبة لعلم أصول الفقه باعتباره علماً يحرر العقول من الجمود ، ويدعوها إلى التبصر والتفكير والتحري في النصوص الشرعية استقصاء لها ، واستنباطاً للأحكام منها ، فكان بالنسبة للمسلمين قانون التشريع وفلسفته ، وعن الغاية من صناعة الفلسفة يقول ابن حزم: «الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد ، وحسن السياسة للمنزل والرعية ، وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة». [الفصل في الملل والنحل 79/1]

وبناء عليه فإن علم الكلام وأصول الفقه والتصوف السني من مكونات الفلسفة الإسلامية ومستمداتها ، وفي ذلك يقول مصطفى عبد الرازق: «وعندي أنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف



من الصلة بالفلسفة ما يسوّغ جعل اللفظ شاملاً لهما، فإن علم أصول الفقه-المسمى أيضاً علم أصول الأحكام- ليس ضعيف الصلة بالفلسفة، ومباحث أصول الفقه تكاد تكون في جملتها من جنس المباحث التي يتناولها علم أصول العقائد الذي هو علم الكلام، بل إنك لتري في كتب أصول الفقه أبحاثاً يسمونها مبادئ كلامية، هي من مباحث علم الكلام». [تمهيد لتاريخ الفلسفة، ص 27]

هذه مصادر الفلسفة الإسلامية وأصولها الصحيحة الأصلية واستمداداتها وبعض مكوناتها، راسمة للفيلسوف المسلم مناهج البحث القويم، ومقاصد البناء الناهض المستقيم، ومعالم الاجتهاد العقلي المنضبط، المهتدي بالوحي، والمستنير بنوره ممثلاً فيما أبدعه علماء الكلام والأصوليون والفقهاء وذاك هو أس الفلسفة الإسلامية وعماد بنائها وهو الضامن لتجدد العلوم وتطورها، فما دام العقل مهتدياً بالكتاب العظيم والنبع الحضاري المتجدد، في هذه الأمة المباركة، فإن آفاق تجددتها، ومسارب فاعليتها، وآماد تجديد علومها لا تتوقف.

التقويم

1. أبين أصول الفلسفة ومجالاتها ومصادرها؛
2. أوضح استمداداتها وقيمتها في تطوير العلوم وتجديدها.

الاستثمار

قال الماوردي: «واعلم أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً، فأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل، الذي جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مُدبَّرة بأحكامه، وألَّف به بين خلقه في اختلاف همهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم». [أدب الدنيا والدين، ص 17]

أوضح من خلال هذا النص قيمة العقل، وظيفته في بناء المعرفة وترسيخ القيم.

الإعداد القبلي

أعد - رفقة أصدقائي - ورقة تتعلق بنشأة الفلسفة الإسلامية وتطورها.